

الأدب المقارن وبداياته الأولى في الأدب العربي

على صابري*

الملخص

إن الأدب المقارن بحث أدبي ظهر في عالم الأدب في القرن التاسع عشر، ويعد فرنسا المهد الأول للدراسات المقارنة، فجعل الأدباء الفرنسيون له حدودا، كإقتصاره بالأدب دون الفنون الأخرى، واختلاف اللغة، ووجود الصلة بين الأدبين أو الأدبيين. ولنشأة هذا الفرع الأدبي الجديد عوامل كثيرة منها: ظهور النزعة العالمية، والدراسات العلمية، واتساع الأفق الأدبي إثر تطورات ثقافية كمنشآت حركة الترجمة، وظهور الطباعة، واختراع وسائل المواصلات.

فسرعان ما تسرب إلى الآداب الأخرى، ومنها إلى الأدب العربي، فمن الأدباء العرب الذين حاولوا أن يفوزوا بالسباق في هذا المجال، هم سليمان البستاني في مقدمته على الإلياذة، وأحمدشوقي في مسرحيته كيلوباترا، وإلياس أبوشبكة في كتابه روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة، وروحي الخالدي في كتابه تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب، وفيكتور هوغو.

الكلمات الدلالية: المقارنة، الصلات الأدبية، التأثير الأدبي، التأثير العكسي، النقد المقارن.

*. أستاذ مشارك بجامعة آزاد الإسلامية فرع طهران المركزية (دانشيار دانشگاه آزاد اسلامی واحد تهران مرکزی).

المقدمة

إن الدراسات الأدبية نوعان: نوع يدرس الآثار الأدبية وهو فردى كدراسة الغزل عند عمر بن أبي ربيعة، وهذه الدراسة لا تتناول إلا أعمال ابن أبي ربيعة الشعرية واتجاهاته الفنية، ونوع آخر هو دراسة الأحداث الأدبية، كدراسة ظاهرة الغزل في العصر الأموي التي اشترك في تنشئتها وتنميتها عدد من الشعراء العرب، وهذا النوع بطبيعة الحال أوسع أفقا من النوع الأول، إلا أنه لا يتجاوز حدود الأمة العربية.

ولكننا لو أردنا أن ندرس ظاهرة أدبية عالمية فلا بد أن نتصف دراستنا بنوع من الاستمرار والتعاقب، كدراسة نشأة الملحمة، بوصفها ظاهرة أدبية عالمية قديمة، ففي حاجة إلى نوع من الدراسة التي تتناول آداب الأمم المختلفة وعلاقة بعضها ببعض، لما في نشأتها وتطورها من مشاركة كثير من الأدباء، فإننا الآن نحاول أن ندرس الأدب المقارن وهو أيضا ظاهرة أدبية عالمية شاركت في تنميتها وتطويرها أقلام كثير من الأدباء.

ولعل كثرة حجم الدراسات المقارنة لدى العرب والدور الذي لعبه الأدباء العرب في هذا الحقل الدراسي هما قد شجعانا على أن نبذل جهودنا في سبيل الكشف عن بداياتها الأولى وكيفية تطورها، وارتباطها بأسباب وعوامل ثقافية وحضارية.

الأدب المقارن وتحديد منطقتيه

إن لفظ المقارن لغة هو اسم مفعول من «قَارَنَ، مقَارَنَةً، الشيءَ بالشيءِ»: وأزَنَه به» وهو صفة من المقارنة (comparison)، والمصطلح الفرنسي الأصلي هو (la littérature comparée) وترجم إلى الإنكليزية بـ (comparative) أى المقارنى. أما المقارن اصطلاحا هو منهج، من المناهج الدراسية، اتخذها الإنسان سبيلا للوصول إلى معرفة الحقائق في شتى الميادين. إلا أن ما يهَمُّنا هنا هو تحديد مجال الأدب المقارن، بوصفه علما من علوم الأدب الحديثة، إذ إننا لا نقصد، هنا، بالمقارن معناه اللغوي بل نعتقد أن له مدلولاً تاريخياً أدبياً، يدرس الأدب القومي ويتتبع علاقاتها التاريخية بغيره من الآداب



الأجنبية وما لهذه العلاقات من تأثير وتأثر، والعلاقات الأدبية أو الصلات الأدبية^١ هي مصطلح يستعمل في حيز الأدب المقارن ليشمل حركة الترجمة والتأثير والتأثر بين أدبين أو مؤلفين في دولتين مختلفتين (وهبة، ١٩٨٤م: ٢٥٢). كالصلات الأدبية بين الأدبين اليوناني والرومي قبل الميلاد أو الفارسي والعربي في العصر العباسي أو بين إنكلترا وفرنسا في الربع الأخير من القرن السابع عشر. فإن ما نذكر هنا، من الشروط، يحدد مجال الأدب المقارن في رأي الفرنسيين، إذ إن فرنسا تُعتبر المهد الأول للأدب المقارن:

١- اقتصره على الأدب، إن مصطلح «المقارن» الذي نتناوله هنا يجب أن لا يتجاوز نطاق الأدب إلى غيره من الفنون الإنسانية الجميلة كالرسم، والموسيقى، والنحت، والتصوير، وغيرها. وإن كانت قضية الجمع بين الشعر والفنون الجميلة قديمة جداً، ترجع بداياتها الأولى إلى الفيلسوف اليوناني أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م)^٢ مؤلف كتاب فن الشعر (Poetics) في النقد وكتاب البلاغة (Rhetoric) في الخطابة، حيث أبدى نظريته المعروفة بـ «المحاكاة»،^٣ وهي نظرية بناها أرسطو عندما أراد أن يبين الصلة بين الفن والطبيعة، وأساس نظريته في كتابه فن الشعر، هو أن الفن محاكاة للطبيعة، وكذلك الشعر، فإذن الرسم يحاكي الأشياء التي يصورها بالألوان والرسم، والموسيقى تحاكي بالأصوات إيقاعاً وانسجاماً، والفنون القولية تحاكي الأشياء بالكلام، وتستعين أحياناً بوسائل الفنون الأخرى من إيقاع (rhythm) ولحن (tone) و وزن (meter) (ارسطو ١٣٨٢هـ-ش: ١١٣ و ١١٥؛ فراي، ١٣٧٧ش: ١٣٤؛ غنيمي هلال، ٢٠٠١م: ٤٨؛ التونجي، ١٩٩٩م: ٧٤٧؛ وهبة، ١٩٨٤م: ٣٣٩؛ رضايي، ١٣٨٢ش: ٢٠٨). ثم ظهرت محاولات كثيرة تدعى أن الفنون يُفسر بعضها بعضاً، كما كتب الأب شارل بتو^٤ كتاباً عنوانه الفنون الجميلة على أساس مبدأ واحد^٥، وكذلك ادعى الكاتب العربي الجاحظ (ت-٢٥٥هـ-٨٦٩م): «إنما الشعر

1. literary relations
2. Aristotale
3. mimesis
4. Charles Batteux
5. Les beaux arts réduits a um même principe

صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير.» (الجاحظ، ١٩٦٩م، ج٣: ١٣١) فقد كانت هذه النظرية قد سادت الدراسات الأدبية منذ مدة بعيدة وخاصة منذ كان للموسيقى دور هام في المسرحيات قبل انفصال المسرحيات الغنائية عن المسرحيات التمثيلية، إلا أن المقارن المتعارف عليه هنا، لا يهتم إلا بمقارنة أدب معين بأدب آخر أو بعدد من الآداب الأخرى، لا بمقارنة الأدب بالموسيقى، أو غيرها من الفنون الجميلة الأخرى.

٢- الاختلاف في اللغة، إن اللغة هي الفاصلة بين الأدب المقارن وغيره من الدراسات الأدبية لا الحدود السياسية والجغرافية، فدراسة مدارس الشعر في الدول العربية، أو الموازنة بين الرواية البوليسية^١ في الأدب الأميركي والأدب الإنكليزي، التي تكتب فيهما باللغة الإنكليزية لا تُعدّ من الأدب المقارن، كما أن مقارنات كالموازنة بين الشعارين في الأدب العربي أبي تمام (١٨٨-٢٣١هـ = ٨٠٤-٨٤٦م) والبُحْتُريّ (٢٠٦-٢٨٤هـ = ٨٢١-٨٩٧م) أو الموازنة بين المسرحيين في الأدب الفرنسي ككورني (١٦٠٦-١٦٨٤م) وراسين (١٦٣٩-١٦٩٩م)^٢ وغيرهما لا يمكن اعتبارها أدبا مقارنا.

٣- وجود الصلة، مما يحدد نطاق الأدب المقارن الذي نتحدث عنه، هو الصلة التاريخية، إذ إن ميدان الأدب المقارن هو التلاقى التاريخي بين مختلف الآداب، ومما لاشك فيه أنه لو لم توجد صلة أو تلاق بين الأدبيين أو الأدبيين لَمَا وُجد التأثير والتأثر.^٣

ومن الضروري أن نعرف أن التأثير الأدبي هو أحد الأمور الآتية: أ) تأثير أديب أو مؤلفاته على أديب آخر كما تأثر الناقد المصري المعاصر طه حسين (ت١٩٧٣م) بالكاتب العربي المعروف الجاحظ (ت٨٦٩م) وتأثر الشاعر المعاصر أحمد شوقي (ت١٩٣٢م) بالشاعر الشهير في العصر العباسي المتنبى (ت٩٦٥م). ب) تأثير تياراً أدبي ماض على

1. *detective novel*
2. *Pierre Corneille و Jean Racine*
3. *literary influence*
4. *current*



أديب لاحق. أو تأثير تيار أدبي أجنبي ماضٍ أو معاصر على أديب معيّن، كتأثير الشيخ محمد عبد المطلب (ت-١٩٣١م) وهو من شعراء مدرسة المحافظة في العصر الحديث بالشعر الجاهلي، وتأثير أدباء العرب المعاصرين بالمدارس الواقعية والرمزية في الآداب الأوروبية. (ج) تأثير مؤلفات أديب معيّن على روح عصره وذوقه العام، كتأثير طه حسين على روح الجيل بعد الحرب العالمية الثانية. (وهبه، ١٩٨٤م: ٨٢)

فإن الدراسات المقارنة بين كتّاب من آداب مختلفة، ما لم تقم بينهم صلوات تاريخية، لا تدخل ضمن الأدب المقارن، لأنها لا تكشف عن جوانب تأثر الكتّاب في الأدب القومي بالآداب العالمية فإذن لا تُعد الموازنة بين الشاعر الإنكليزي جون ملتن (١٦٠٨-١٦٧٤م)^٢ صاحب ملحمة الفردوس المفقود^٣ وهي من روائع الأدب العالمي، والشاعر الفيلسوف العربي أبي العلاء المعري (٣٦٣-٤٤٩هـ = ٩٧٣-١٠٥٧م)، مؤلف رسالة الغفران لكونهما أعميين ولكل منهما آراء متشابهة فيما يخص الدين، من الأدب المقارن، إذ ليس بينهما صلة تاريخية، ولم يعرف أحدهما الآخر حتى يتأثر به، كما أننا لا نعدّ كتابَ راسين و شكسبير^٤ أثر الكاتب والروائي الفرنسي ستاندال (١٧٨٣-١٨٤٢)^٥، مقارنة بهذا المعنى، حيث قام بالمقارنة بين جان باتيست راسين (١٦٣٩-١٦٩٩م) وهو شاعر مسرحي فرنسي، يعتبر أحد أعظم المسرحيين الكلاسيكيين في تاريخ الأدب كله، وويليام شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦م) وهو شاعر إنكليزي يُعتبر أعظم الشعراء والمسرحيين الإنكليزيين بلا استثناء، ومن أبرز شخصيات الأدب العالمي، عاش في لندن، واشتغل بالمرح وألف ما يناهز الأربعين مسرحية شعرية عميقة التحليل للنفس الإنسانية وأثر في كل شعراء العصور التالية.

نشأة الأدب المقارن

ومما لا يخفى على أحد هو أن نظرية الأدب المقارن نظرية حديثة جدا، ترجع

1. *realism و symbolism*
2. *John Milton*
3. *Paradise Lost*
4. *Jean Baptiste Racin و William Shakespeare*
5. *Stendhal*

بداياتها الأولى إلى العقد الثالث من القرن التاسع عشر، وإن نجد دراساتٍ مقارنةً، أحياناً، ضمن نطاق الأدب الواحد، وأحياناً أخرى، بين الآداب المختلفة، ولا يمكن لنا أن نُنكر أثرها في ميلادها، كالسَّير الموازية^١ لكاتب السَّير اليوناني بلوتارك^٢ (٤٦-١٢٠م)، والدراسات التي نجدها لدى العلماء الألمان المعروفة بتاريخ الموضوعات^٣ منها دراسة مأساة فاوست (faust) أثر غوته في الأدب الألماني والفرنسي، أو كيلوباترا (Cleopatra)، في الأدب الفرنسي والإنكليزي والعربي.

إلا أن الأدب المقارن في مفهومه الحاليّ علّم حديث من علوم الأدب، وفتح جديد من فروع المعرفة الأدبية، التي تُحاول الكشف عن ميادين التأثير والتأثر وبيان العلاقات الأدبية الدولية، فإذن لانعرف في العصور القديمة من أبواب البحث الأدبي ما يُشبه هذا الأدب المقارن، لا في أهدافه ولا في مناهجه. وأول من استخدم مصطلح الأدب المقارن (la littérature comparée) في الغرب، هو أستاذ الأدب لجامعة سوربون والناقد الفرنسيّ فرانسوا فيلمان (١٧٩٠-١٨٧٠م)^٤، عند إلقاء محاضرات أدبية - تاريخية تدور حول علاقات الأدب الفرنسي مع الآداب الأوربيّة الأخرى سنة ١٨٢٨م. (غنيمي هلال، ١٩٩٩م: ١١)

ولكن الباحث الفرنسي جون جاك أمبير، هو أول من كان قد نبّه قبل فيلمان إلى ما من الأهمية التاريخية لدراسة الأدب المقارن، كما أن شعراء جماعة الثريا أو البلياد^٥، وهم طائفة من أوائل الشعراء المجددين في الأدب الفرنسي في عصر النهضة الأوربية (منتصف القرن السادس عشر)، قد نبهوا إلى العودة إلى نصوص الأدبين اليوناني واللاتيني، في دعوتهم إلى المحاكاة للنماذج الجيدة في الآداب الأجنبية عندما أخذوا يدعون عملياً إلى تجاهل الشعر الشعبي ويشجعون على المحاكاة للآداب اليونانية

1. *Parallel Lives*

2. *Plutarch*

3. *Stoffgeschichte*

4. *François Villemain*

5. *Pléiade*



والرومانية. (دورانت، ١٣٧٨هـ ش، ج ١١: ٣٩٢؛ خانلري، ١٣٧٥هـ ش: ١٥٧١؛ رضايي، ١٣٨٢هـ ش: ٢٤١)

ثم انتقل الأدب المقارن من فرنسا إلى البلدان الأخرى، وشاع بين جميع الأمم لأسباب متعددة. (غنيمي هلال، ١٩٩٩م: ١١؛ أنوشه، ١٣٧٦هـ ش: ٤٢؛ رضايي، ١٣٨٢هـ ش: ١٨١)

فقد كان القرن التاسع عشر عصر التقدم والرُقّي في أوربا فوجدت هناك عوامل مختلفة أثرت في نشأة الأدب المقارن ونموّه، وإننا نوجزها الآن فيما يلي:

١- اتساع أفق الأدب، وهذا الاتساع الأدبي راجع إلى تحولات ثقافية وعلمية مختلفة انتهت إلى تطورات أدبية مرتبطة بالتغيّرات الاجتماعية، والسياسية، وهي: أ) اختراع وسائل المواصلات السريعة (راغب، ٢٠٠٣م: ٥٠٠؛ ب) ظهور الطباعة (دورانت، ١٧٧٨هـ ش، ج ٦: ١٩١). ج)؛ نشر الجرائد و المجلات؛ د) نشاط حركة الترجمة.

٢- ظهور النّزعة العالمية (cosmopolitanism)، وهي نزعة ترمي إلى اعتبار الإنسان أسرة واحدة، وطنها العالم، وأعضاءها أفراد البشر جميعا، رغم اختلاف لغاتهم وانتمائهم إلى حدود جغرافية. (تراويك، ١٣٧٣هـ ج ٢: ٨٧٥؛ التونجي، ١٩٩٩م، ج ٢: ٨٣٤؛ وهبه، ١٩٩٤م: ٣٩٥)

٣- ازدهار الحركة الرومانتيكية/الإبداعية/الرومانسية (Romantic Movement)، هي حركة فكرية، وفنية وأدبية حديثة، ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر في أوروبا معارضةً لقواعد الكلاسيكية (classicism) التي كانت تعتمد على إحياء الأصول والتقاليد الأدبية الشائعة في الحضارتين اليونانية والرومانية، مطالبةً بأدب جديد يدفع الإنسان نحو الطبيعة وإيثار الحس والعاطفة وتفضيلهما على العقل والمنطق، والمثالي على الواقع، داعية إلى الإفادة من الآداب الأخرى لاكتشاف ألوان الجمال في تلك الآداب، ودراستها في لغاتها الأصلية. وهذه كلها أدت إلى مجال مناسب للدراسات المقارنة بين الآداب الأوروبية، ثم بين آداب الشرق والغرب. (راغب، ٢٠٠٣م: ٣١٢؛ حسيني، ١٣٨١هـ ج ١: ١٧٧؛ رضايي، ١٣٨٢هـ ش: ٢٩١)

٤- الدَّرَاسَاتُ العِلْمِيَّة (scientific studies)، إنَّ قضية صلة الأدب بالعلوم الإنسانية كعلم التاريخ، وعلم الاجتماع وعلم النفس، وتأثير المناهج العلمية في فهم الأدب، ظاهرة بدت إثر المحاولات النقدية والأدبية، وظهور النظرية العلمية (scientism) التي تقول بأن طرائق العلوم الطبيعية والإنسانية يجب أن تصطنع في جميع حقول المعرفة، ترجع بداياتها إلى محاولات أفلاطون وأرسطو (انظر راغب، ٢٠٠٣م: ٤٦٧). وحين رأى الأدباء الباحثون ضرورة إخضاع المادة الأدبية لمعطيات العلم المعاصر، وخاصة بعد انهيار دعائم النزعة الفردانية (individualism) التي ترى أن الفرد أعلى ما في الكون قيمة، فإن المصالح الفردية يجب أن لا تُخضع لسيطرة الحكومة أو المجتمع، فمن ثم تدعو إلى سعادة الإنسان الفرد، فدفعت الظروف الحياة الجديدة المتطورة نحو الجماعية (collectivism) التي هي في الأصل المبدأ الاشتراكي القائل بسيطرة الدولة أو الشعب ككل، على جميع وسائل الإنتاج أو النشاطات الاقتصادية، فمن ثم اهتم علم الاجتماع الأدبي (literary sociology) بالأدب كظاهرة اجتماعية وربط بين الأدب والفن بعوامل العرق، والبيئة، والتاريخ، والظروف الاجتماعية، وغير ذلك، فبالغ العلماء في هذا الأمر حتى قالوا بحتمية الأثر الاجتماعي، وبخاصة الفيلسوف المؤرخ، والناقد الفرنسي هيبوليت تين، (١٨٢٨-١٨٩٣م) صاحب نظرية تأثر الأدب بالعوامل الثلاثة هي الجنس (race)، والبيئة (milieu)، والزمن (moment)، وقد حاول في نظريته أن يطبّق المنهج العلمي في النقد الأدبي، فاعتقد بضرورة دراسة تلك العوامل النفسية والطبيعية الثلاثة التي هي العوامل الحتمية في تكوين الأدب، في الدراسات النقدية، كما أن الأدباء اعتبروا أدبهم في مجال المعنى والرسالة مرآة صادقة، تعكس المجتمع الإنساني، ومصباحاً مُنيراً، يُزيل الظلمة التي سادته منذ عصورٍ طويلة، فجعلوه أداة بناء و وسيلة مؤثرة لإبعاد المجتمع عن الجهل والركود والفساد. فيبدو أن شارلز دادلي وارنر (١٨٢٩-١٩٠٠م) ألف مقالته علاقة الأدب بالحياة^٢ ليبين هذه الصلة الوثيقة. (ديجز، ١٣٧٣هـش: ٢٠٧؛ گرین، ١٣٨٠هـش:



1. Charles Dudley Warner
2. Relation of Literature to life

٢٤٨؛ شمس، ١٣٧٨هـ-ش: ٢٥٥؛ راغب، ٢٠٠٣م: ٣٢٦)

٥- انتشار المَنهج المُقارن (comparative method): إن انتشار المقارنات العلمية كعلم التاريخ المُقارن (comparative history) وعلم اللُغة المُقارن (comparative linguistics) وقواعد اللُغة المُقارنَة (comparative grammar)، وعلم الحياة المقارن (comparative biology) وغيرها مما دعا الأدباء الباحثين إلى اقتراح «الأدب المقارن» على قياس العلوم الأخرى المقارنة، وإن تختلف مناهج الدراسات المقارنة في مجالات العلوم وغايتها بالنسبة إلى دراسة الأعمال الأدبية.

البدايات الأولى من الأدب المقارن لدى العرب

أما المقارنات في الأدب العربي، فإذا راجعنا تاريخ الدراسات الأدبية لدى العرب لوجدنا بعض ملامح هذا النوع من الدراسات منذ أقدم عصور، فالموازنة بين أبي تمام والبحتري هي خطوة خطأها الآمدى (ت-٣٧٠هـ) نحو المقارن، أو كما عبّر عنه إحسان عباس بقوله: «الموازنة وثبة في تاريخ النقد العربي بما اجتمع له من خصائص لا بما حققه من نتائج.» (مندور، ١٩٩٦م: ٣٤٣ وما بعدها). وهي في الحقيقة استمرار لتلك المفاضلة التي كانت سائدة في الدراسات النقدية منذ العصر الجاهلي إلا أنها أصبحت نشاطاً أدبياً يختلف اختلافاً باهراً عن تلك المفاضلات القديمة، كما نرى هذا النوع من الدراسات لدى زكي مبارك في كتابه الموازنة بين الشعراء فإنه قد قارن في كتابه بين كثير من الشعراء القدماء والمعاصرين، كالمقارنة بين البحتري وشوقي، ص ١٠٤، والبوصيري وشوقي، ص ١٤٦، والبوصيري وشوقي والبارودي، ص ١٥٥، والبارودي وأبي نواس، ص ٢٥٣، وغيرهم. إلا أنهما لم تتجاوزا الحدود القومية إلى الآداب الأجنبية، فإذن لا يتدرجان في الأدب المقارن في رأى الفرنسيين الذين يرون أن الاختلاف في اللغة، لا الحدود السياسية، هو الحد الفاصل بين الأدب المقارن والدراسات المقارنة الأخرى، فإننا نعتبر تلك الدراسات موازنة لا مقارنة.

إلا أن الأدب المقارن في مفهومه الجديد لم يظهر لدى العرب إلا بعد ازدياد نفوذ

الأجانب، وتعرفهم بمنجزات الحضارة الأوروبية وفنونها الأدبية، وبخاصة الفرنسية، واستطاعوا أن يطلّوا بواسطتها على آفاق جديدة في الحياة الثقافية والأدبية، إما عن طريق الترجمة ونقل منتجات الفكر الغربي إلى اللغة العربية، وإما عن طريق الاطلاع المباشر على فنون آداب الغربيين بعد إرسال بعض البعثات العلمية إلى أوروبا (زيدان، ١٩٩٢م، ج ٤: ٣٨١)، حيث جعلت الباحثين يُعَنون بدراستها عناية واسعة ويقفون على نتاج عقولهم؛ وإن كان الأمر في البدء يقف عند حد الترجمة والاقتباس والتقليد، إلا أنهم رغبوا في المقارنة بين ما بين أيديهم من تراثهم القديم وبين الآراء التي اقتبسوها من الغرب بعد ازدياد نفوذ الأدب الأجنبي وإعجاب أبناء البلاد العربية بذاك الأدب الذي عكفوا على ترجمته حيناً وتقليده حيناً آخر. (الدقاق، لاتا: ٢٠٣)

فهذا الاتصال الثقافي قد غرس البذور الأولى لفكرة المقارنة (الكتاني، ١٩٨٢م، ج ٢: ٨٣٨) التي أدت إلى ظهور الأدب المقارن لدى العرب ودراسة تاريخ العلاقات الدولية، فيكفي هنا أن نشير إلى المحاولات الأولى في هذا المجال، التي تعد تمهيداً لظهور هذه الدراسات، كما يعد أصحابها رُواد الأدب المقارن في تاريخ الأدب العربي، منهم اللغوي اللبناني أحمد فارس الشدياق (١٨٠١-١٨٨٧م) في كتابه كشف المخبأ عن كنوز أوروبا، وأمين فكري المصري (١٨٩٩م) في إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا، ورفاعة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣م) في كتابه تخليص الإبريز في تلخيص باريز الذي يتناول رحلته إلى باريس وما شاهده هناك ويقابل بين قواعد اللغة الفرنسية وقواعد اللغة العربية كما يقابل بين العرب والفرنسيين في علم البلاغة ومقاييسه، كما وازن الأديب السوري نجيب الحداد (١٨٦٧-١٨٩٩م) بين الشعر العربي والشعر الغربي وأثبت أن المقياس في الشعر العربي هو المقاطع اللغوية المكررة في البيت المعروفة بـ«التفعيلة» بينما هو في الشعر الغربي الأهجية اللفظية المسماة بالأقدام (foots)، كما وازن بين القافية في الشعر العربي والقافية في الشعر الغربي. (الدسوقي، ٢٠٠٣م: ٢٢٦)

إلا أن هذا المجال الضيق لايسع دراسة كل هؤلاء الأدباء، فلا بد أن نقصر بحثنا على بعض منهم دون بعض فإن هناك دراسات قيمة أخرى في هذا المجال يمكن للباحثين



الرجوع إليها فيكفينا أن نشير إلى رواد هذا البحث وهم:

أ) سليمان البستاني (١٨٥٦-١٩٢٥م)، علامة موسوعيّ، وعالم، وأديب، وكاتب، وشاعر لبناني، أتقن عدة لغات، وشغل عدة مناصب سامية في الدولة العثمانية، طوف بأقطار أوروبا وأميركا واشترك في إتمام دائرة المعارف، ونال شهرة واسعة بتعريبه إلياذة هوميروس^١ شعراً وبالمقدمة التي وضعها عليها.

أما من الناحية المقارنة فهو معرّب الإلياذة وهي أشهر ملاحم العالم تقع في أربعة وعشرين نشيدا قصصيا، تدور حوادثها البطولية على أخبار الحروب التي نشبت بين اليونان والطرودا^٢، لسيد الشعراء هوميروس، (حوالي القرن الثامن ق.م)، وهو أعظم شعراء اليونان القدماء.

فقد قام سليمان البستاني بأول محاولة جادة في مجال الأدب المقارن في الأدب العربي بترجمة الإلياذة وكتابة مقدمة نقدية، أصبحت نموذجا للدراسة الأدبية، ومقارنة الآداب، حيث حاول أن يوازن فيه بين جاهلية العرب وجاهلية اليونان ويقارن بين الملحمة اليونانية والشعر العربي القصصي، ويثبت عدم وجود الملحمة في الأدب العربي القديم نحو ما لدى الغرب، وأشار إلى ما لدى العرب من الشعر القصصي الذي يعالج بعض الحوادث كوقائع حرب البسوس ليبين أوجه الاختلاف بينه وبين الملاحم المعروفة وينفي عن كون تلك الأشعار ملحمة بحجج فنية كوحدة الصوت في الإلياذة وتعدد الأصوات في تلك القصص ويقول: «...ثم إذا نظرت إلى أشهر الرجال والنساء فيها رأيتهم جميعهم شعراء فكلّيب يقول الشعر ومثله زوجته جلييلة وأخوه مهلهل وكذلك مرة شاعر وابنه جساس شاعر وكلّ ذى شأن في القصة من غريب وقريب شاعر، كالحارث بن عباد وحجدر بن ضبيعة فمجموع شعرهم أشبه من هذا الوجه بالشعر التمثيلي لأن لكل حادثة شاعرا ينطق بها بخلاف نهج شعر الملاحم كالإلياذة إذ ترى هوميروس فيها ينطق بلسان الجميع» (البستاني، ٢٠٠٤م: ١٧٠). كما قارن بين اللغة

1. *Iliad, Homer*

2. *Troy*

العربية واللغات القديمة كالبيونانية واللاتينية، ورأى أنها أطول اللغات الحية عمرا وأثبتهنّ قديما، ويعود هذا الفضل إلى القرآن الكريم الذي حفظها طوال العصور، ويقول: «إن اللغة العربية أطول اللغات الحية عمرا وأقدمهن عهدا والفضل في كل ذلك للقرآن. فالإلياذة وبلاغتها وسائر منظومات هوميروس وهسوديس [Hesiod] (حوالي ٨٠٠ ق.م.) شاعر يوناني] على علو منزلتها لم تُقم للغة البيونانية دعامة ثابتة حتى في بلادها...» فإن اللغة البيونانية اليوم ليست لها علاقة باللغة التي كتبت بها الألياذة إذ لا صلة هناك تجمع بين لغته القديمة ولغتها الحديثة (المصدر السابق: ١١٣) فمن الممكن أن نعد عمل البستاني هذا في النقد والأدب فاتح باب الدراسات المقارنة في الأدب العربي إذ إنه قارن طبيعة الأوزان العربية وصلتها بالموضوعات الشعرية والحالات النفسية والشعر عند العري هو الكلام الموزون والمقفى بينما لا تعرفه الآداب الأجنبية وخاصة الإفرنج والشعر عندهم يقوم على واقع نغمي صادر من أجزاء ومقاطع (المصدر السابق: ٩٠). وطبيعة اللغة العربية في التعبير والتشبيه والمجاز باللغة البيونانية (المصدر السابق: ١٧٦). وبسط ذلك في صفحات عديدة من مقدمته، وانتشار هذه المقارنات النقدية في الصحف والمجلات دعا الأدباء إلى مواصلة هذا النوع من الدراسات الأدبية التي لم يكن لهم عهد بها.

ب) أحمد شوقي (١٨٦٩-١٩٣٢م) من أشهر شعراء مصر وأمير شعراء العرب في العصر الحديث، ولد بالقاهرة ودرس الحقوق والآداب بفرنسا له ديوان الشوقيات، وعدة مسرحيات أشهرها مصرع كيلوباترا. وكيلوباترا (Cleopatra) شخصية تاريخية في مصر والرومان، أوصاها أبوها أن تتزوج أخاها ويرتقيا العرش معا بعد موته. وقد أعجب القيصر بها، وتلاقت آمالهما الواسعة، لكن الموت عاجله، وحين قدم أنطونيوس (Antunny) تزوجته، وأغرته بمحاربة اوكتافيوس (Octavian) على أمل السيطرة على العالم الروماني كله. صارت شخصيتها عالمية في الأدب، فتناولها شكسبير في مسرحيته التاريخية أنطوان وكيلوباترا^١، ثم الشاعر الناقد والمسرحي الإنكليزي جون درايدن (١٦٣١-١٧٠٠م)^٢ في مأساته العالم المفقود^٣، والكاتب المسرحي الإنكليزي جورج برناردشو

1. *Antony and Cleopatra*
2. *John Dryden*



(١٨٥٦-١٩٥٠)^٢ في ملهاته القيصر وكيلوباترا^٣. (دورانت، ١٣٧٨هـ-ش: ٢٣٧؛ غنيمي هلال، ١٩٩٩م: ٣٢٢؛ التونجي، ١٩٩٩م، ج ٢: ٧٢٨)

إن عمل شوقي هذا يعد التأثر العكسيّ (influence á rebours)، وهو من القضايا التي تتدرج في الأدب المقارن، والتأثر العكسي هو أن يقاوم الكاتب أثر كاتب آخر في أدب أمة أخرى فينتج من هذه المقاومة أثرها في تأليفه كما فعل رسول پرويزي، الكاتب الإيراني، في قصة عبد السلام مادر مرده، من مجموعة لولي سرمست في مقاومته قصة ليلي مجنون، في الأدب العربي. (غنيمي هلال، ١٩٩٩م: ١٦ و ٣٢٢؛ أنوشه، ١٣٧٦هـ-ش: ٤١)

وهكذا أحمد شوقي في مسرحيته المعروفة كيلوباترا، التي ألفها شعرا، فاستمد قصتها من تاريخ مصر أيام الرومان، لينظر إليها بعين مصرية ويصور صورة كيلوباترا الحقيقية، وربما كان الهدف الأساسي من نظم شوقي هذه المسرحية، الدفاع عن الملكة المصرية حتى يسقط عنها كثيرا من تهمة التاريخ، وينصر كيلوباترا التي ظلمها الكتاب الأوربيون ويصورها بطلة وطنية مخلصه، تؤثر وطنها على حبيبها وتجتهد لمجد وطنها بتقدم مصالح مصر على مصلحتها الشخصية.

إن أحمد شوقي يناجي في هذه المسرحية الشعرية، أنوبيس (Anubis)، وهو إله المقابر عند المصريين القدماء، قائلا:

يَقُولُونَ أَنُوبِيسُ وَلَوْعٌ بِأَفَاعِيهِ وَمَشْغُوفٌ بِتُبْعَانَ مِنَ الْوَادِي يُرَبِّبِهِ
وَفِي نَادِيهِ حَيَاتٌ مِنَ الْجَنِّ تُنَاجِيهِ وَلَوْ ذَاقُوا هَوَى الْعِلْمِ كَمَا ذُقْتَ فَنُؤَا فِيهِ
أَلَا يَا رَبِّ خَدَاعٍ مِنَ النَّاسِ تَلَاقِيهِ يَعِيبُ السَّمَّ فِي الْأَفْعَى وَكُلُّ السَّمِّ فِي فِيهِ
(أحمد شوقي، ١٩٨٨م: ٤٠٥)

(ج) إلياس أبوشبكة، (١٩٠٣-١٩٤٧م) شاعر روماني متأثر بالرومنسي الفرنسي، ذو ثقافة واسعة أخذها من الأدب العربي والأدب الفرنسي، وتأثر بها شعره وأدبه؛ ولد

1. World well Lost
2. George Bernard Shaw
3. Caesar and Cleopatra

أبو شبكة في نيويورك، ثم عاد إلى بلاده واشترك في تحرير عدد من الصحف العربية، له كتب في الشعر والنثر وعدد كبير من الكتب المترجمة، إلا أن ما يهمننا من أعماله في هذا المجال هو كتيب له في النقد والتاريخ الأدبي ظهر سنة ١٩٤٣م، عنوانه روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة، فقد حاول المؤلف في هذا الكتيب أن يبين مدى تأثير الأدب الفرنسي في آداب الأمم الأوروبية أولاً وفي الآداب الشرقية والغربية كلها ثانياً، بدراسة آثار الحضارة الفرنسية التي نقلت إلى الشرق بعد حملة الإمبراطور الفرنسي بونابرت نابليون (١٧٦٩-١٨٢١م) أول يوليو ١٧٩٨م وظهور المثقفين المسيحيين الذين كانوا يُعدون جسوراً لانتقال الأفكار الحديثة إلى الشرق ويساهمون في فجر النهضة الأدبية بنقل بعض آثار الفكر الغربي إلى اللغة العربية، وفي النهاية يعد الثورة الفرنسية منشأ هذه الحركة الأدبية في الأدب العربي، وهذه المعطيات جعلت أباشبكة أن يدعي: كما أن الحركة الرومانسية هي التي حملت لواء الثورة الأدبية الفرنسية على الكلاسيكية فمن الواجب أن تحمل لواء النهضة الأدبية العربية على الأدب القديم حركة رومانسية مقتبسة من الأدب الفرنسي. فاستطاع أن يسهم بآرائه النقدية وإعجابه بالحركة الرومانسية الغربية في غرس بذور الأدب المقارن في أرض الأدب العربي الخصبة.

(د) محمد روي الخالدي (١٨٦٤-١٩١٣م)، أديب سياسي ومثقف فلسطيني، ولد بالقدس، ودرس في معهد اللغات الشرقية بباريس، وتولّى عدة مناصب سياسية، له مصنفات في التاريخ والسياسة والأدب. وإذا أردنا أن نأخذ مثالا، ليكون أبرز رواد البحث المقارن في الأدب العربي، فهو الخالدي الذي يعتبر الرائد الأول للأدب العربي المقارن التطبيقي، في كتابه المسمى تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو الذي يحتوي على تاريخ علم الأدب عند الإفرنج وما يقابله من ذلك عند العرب إبّان تمدنهم إلى عصورهم الوسطى وما اقتبسه الإفرنج عنهم من الأدب والشعر في نهضتهم الأخيرة عن طريق الأندلس، وخصوصا على يد فيكتور هوكو



(١٨٠٢-١٨٨٥م)^١ شاعر وروائي وكاتب مسرحي، من أعلام الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر، صاحب رواية البؤساء^٢. الشهيرة، ورأس المدرسة الرومانسية في الأدب الفرنسي ليستخلص أن كل ثورة اجتماعية وسياسية جديدة أو بعبارة أخرى، كل عصر جديد يتطلب نوعاً من التجديد في النظم والنشر كما أن الانقلاب الفرنسي أدى إلى انقلاب في عالم الأدب.

فهذه المحاولات الأولى وما أثارته من نقاش وحوار أدبي في الصحف والمجلات هي التي أوحت إلى الأدباء بالدراسات الجادة التي قادتهم إلى المقارنة بين الآداب الغربية والآداب الشرقية، حتى جاء بعدهم أدباء آخرون وحملوا لواء تلك الأفكار الحديثة ودافعوا عنها وطوروها إلى ما نراه اليوم.

النتيجة

ونتيجة البحث أن العلاقات الأدبية والتأثير والتأثر عمل ثقافي مشروع يحدث دائماً بين أدبين أو أكثر إثر الصلات التاريخية متجاوزاً النزعات الشعبية والقومية، والأدب العربي بكونه أحد الآداب العالمية العريقة قد دعاه الإعجاب بالظواهر الأدبية الغربية الحديثة إلى هذا التأثير، فأخذ يتناول الأدباء العرب ظاهرة الأدب المقارن حيث استطاعوا أن يطلوا بوساطته على آفاق جديدة في حياتهم الأدبية، ليربطوا أدبهم بالآداب العالمية الأخرى، ومن بواكير هذه المحاولات ما قام به سليمان البستاني في مقدمة الإلياذة، وأحمد شوقي في مسرحيته كيلوباترا، وإلياس أبو شبكة في كتابه روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة، وروحي الخالدي في كتابه تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب، و فيكتور هوغو.

1. Victor Marie Hugo

2. Les Misérables

المصادر والمراجع

- أرسطو (Aristotle). ١٣٧١ هـ.ش. فن الخطابة (Rhetoric). ترجمة برخيده ملكي. الطبعة الأولى. طهران: منشورات إقبال.
- _____ . ١٣٨٢ هـ.ش. فن الشعر (Poetics). ترجمة عبدالحسين زرین كوب. الطبعة الرابعة. تهران: أميركبير.
- أنوشه، حسن. ١٣٧٦ هـ.ش. فرهنگنامه ادبی فارسی. الطبعة الأولى. طهران: سازمان چاپ و انتشارات.
- تراويك، باكترب. ١٣٧٣ هـ.ش. تاريخ ادبيات جهان (The World Literature). ترجمه عربعلی رضایی. الطبعة الأولى. تهران: فرزاد.
- التونجي، محمد. ١٩٩٩ م. المعجم المفصل في الأدب. الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو. ١٩٦٩ م. كتاب الحيوان. الطبعة الثالثة. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- خانلری، زهرا. ١٣٧٥ هـ.ش. فرهنگ ادبيات جهان. الطبعة الأولى. طهران: منشورات خوارزمی.
- الدسوقي، عمر. ٢٠٠٣ م. في الأدب الحديث. الطبعة الثانية. بيروت: دار الفكر.
- دورانت، ويليام جيمز (Durant, William James). ١٣٧٨ هـ.ش. تاريخ تمدن (The Story of Civilization). الطبعة السادسة. طهران: انتشارات علمی فرهنگي.
- ديجز، ديويدي (Daiches, David). ١٣٧٣ هـ.ش. شيوه های تقدأدبی (Critical Approaches to Literature). ترجمة محمد تقی صادقیان و غلامحسين يوسفی. الطبعة الرابعة. طهران: انتشارات علمی.
- راغب، نبيل. ٢٠٠٣ م. موسوعة النظريات الأدبية. الطبعة الأولى. بيروت: الشركة المصرية العالمية للنشر.
- رضایی، عربعلی. ١٣٨٢ هـ.ش. واژگان توصيفی ادبيات. الطبعة الأولى. طهران: فرهنگ



معاصر.

سيدحسيني، رضا. ١٣٨١هـ.ش. مكتب هاي أدبي. الطبعة الثانية عشرة. طهران: مؤسسه منشورات نگاه.

شميسا، سيروس. ١٣٧٨هـ.ش. نقد ادبي. طهران: فردوس. الطبعة الأولى.

شوقي، أحمد. ١٩٨٨م. الأعمال المسرحية الكاملة. بيروت: دار العودة.

غنيمي هلال، محمد. ١٩٩٩م. الأدب المقارن. الطبعة الثالثة. بيروت: دار العودة.

_____ . ٢٠٠١م. النقد الأدبي الحديث. القاهرة: دار نهضة مصر.

فراي، نورثروب (frye, Northrop). ١٣٧٧هـ.ش. تحليل نقد (Anatomy of Criticism).

ترجمة صالح حسيني. الطبعة الأولى. طهران: منشورات نيلوفر.

الكتاني، محمد. ١٩٨٢م. الصراع بين القديم والجديد. الطبعة الأولى. بيروت: دار الثقافة.

جرين، ويلفرد و... (Guerin, W.L.). ١٣٨٠هـ.ش. مباني نقد أدبي (Critical Approaches

to Literature). ترجمة فرزانه طاهري. الطبعة الثانية. انتشارات نيلوفر.

وهبه، مجدي. ١٩٩٤م. معجم مصطلحات الأدب. بيروت: مكتبة لبنان.

هوميرس. ٢٠٠٤م. الإلياذة. تعريب سليمان البستاني. تقديم جابر عصفور. المجلس الأعلى

للتقافة.